***Journal of Religion & Society* (JR&S)**
Available Online:
https://islamicreligious.com/index.php/Journal/index
Print ISSN: 3006-1296Online ISSN: 3006-130X
Platform & Workflow by: Open Journal Systems

The Objectives of Harnessing and Developing the Earth in Islam (A Descriptive, Analytical, and Daʿwah-Oriented Study)

مقاصد تسخير عمارة الأرض في الإسلام

(دراسة وصفية تحليلية دعوية)

Dr Sabah Siddique
Visiting Lecturer, Department of Dawah and Islamic Culture, International Islamic University, Islamabad
Dr Abdel Hamid Kharroub
Assistant Professor, Department of Dawah and Islamic Culture, International Islamic University, Islamabad

Abstract
In light of the rapid transformations and complex challenges affecting humanity's relationship with the universe, with others, and with oneself, there arises a need to revisit the Islamic conception of human stewardship of the Earth through a deep and systematic reading—one that goes beyond functional or utilitarian aspects to the overarching purposes that guide human action and direct its civilizational impact. The concept of divine facilitation (al-taskheer) occupies a central position in this conception, as it carries theological, legal, and civilizational implications that establish a balanced understanding of humanity's relationship with what has been made subservient to it in the cosmos. While Islamic studies have addressed the concept of taskheer in various contexts, much of this scholarship has focused on its cosmic manifestations or its economic and scientific effects, without delving into its broader objectives and legal functions within the framework of the higher purposes of Shariah. This highlights the central issue: uncovering the ultimate goals of divine facilitation, clarifying its role in shaping the believing human, guiding behavior, and fulfilling the human role in the stewardship of the Earth according to the divine paradigm. The article examines the concept of divine facilitation in light of the higher objectives of Shariah, viewing it as a value-based and duty-oriented framework that governs humanity's relationship with the universe and establishes its role in the stewardship of the Earth according to the Islamic vision. It shows that taskheer is not limited to mere material empowerment but rests upon foundational beliefs that regulate human behavior, maintain balance between the unseen and the visible, and integrate reliance on God with taking practical measures. The article also emphasizes the devotional dimension of taskheer in translating theological principles into practical realities that contribute to reform and the building of a human society based on justice and peace. It concludes that caliphate (stewardship) represents the overarching purpose of the objectives of divine facilitation, which is realized only through the integration of both belief and devotional dimensions, within a framework characterized by comprehensiveness and balance, enabling humanity to cultivate the Earth and achieve happiness in both this life and the Hereafter.

Keywords: *Higher objectives of Shariah, divine facilitation, belief, propagation, caliphate, stewardship of the Earth.*

تمهيد:

في ظل ما يشهده العالم المعاصر من تحولات متسارعة، وتحديات مركبة تمس علاقة الإنسان بخالقه،وبذاته، وبالكون وبنظيره، تبرز الحاجة إلى إعادة قراءة التصور الإسلامي لعمارة الأرض قراءة منهجية عميقة، تتجاوز البعد الوظيفي أو النفعي إلى أفق

المقاصد الكلية التي تضبط حركة الإنسان وتوجه فاعليته الحضارية. ويُعدّ مفهوم التسخير الإلهي من المفاهيم المركزية في هذا التصور؛ لما ينطوي عليه من دلالات عقدية وتشريعية وحضارية تؤسس لفهم متوازن لعلاقة الإنسان بما سُخِّر له في هذا الكون.

ولئن تناولت الدراسات الإسلامية مفهوم التسخير في سياقات متعددة، فإن كثيرًا منها انصرف إلى بيان مظاهره الكونية أو آثاره الاقتصادية والعلمية، دون تعميق النظر في مقاصده الكلية ووظائفه الشرعية ضمن إطار مقاصد الشريعة. ومن هنا تبرز إشكالية هذا البحث، التي تتمحور حول الكشف عن الغايات الكبرى للتسخير الإلهي، وبيان موقعه في بناء الإنسان المؤمن، وتوجيه سلوكه، وتحقيق دوره في عمارة الأرض وفق المنهج الرباني.

الكلمات المفتاحية: مقاصد الشريعة، التسخير، العقيدة، الدعوة، الاستخلاف، عمارة الأرض.

وفي هذا السياق جاء هذا المقال ليتناول مفهوم التسخير الإلهي في ضوء مقاصد الشريعة، بوصفه إطارًا قيميًا وتكليفيًا يحكم علاقة الإنسان بالكون، ويؤسس لدوره في عمارة الأرض وفق التصور الإسلامي. ويبيّن أن التسخير لا يقتصر على التمكين المادي، بل يقوم على أسس اعتقادية تضبط السلوك الإنساني، وتحقق التوازن بين الغيب والشهادة، وبين الأخذ بالأسباب والتوكل. كما يبرز البعد الدعوي للتسخير في تحويل المعاني العقدية إلى واقع عملي يسهم في الإصلاح، وبناء مجتمع إنساني قائم على العدل والسلام. ويخلص المقال إلى أن الاستخلاف يمثل الغاية الجامعة لمقاصد التسخير، ولا يتحقق إلا بتكامل البعدين الاعتقادي والدعوي، في إطار يتسم بالشمول والتوازن، ويحقق للإنسان عمارة الأرض وسعادة الدارين،وقد اشتمل هذا البحث على المطالب التالية:

المطلب الأول: المقصد الاعتقادي

إنّ لفظ المقصد مشتق من القصد؛ وله عدة معان في اللغة العربية، من بينها؛

1-طلب الشيء؛ تقول قصدته، وقصدت له، وقصدت إليه، أي طلبته بعينه[1]

2- استقامة الطريق؛ في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ٩﴾[2]، والمراد: بيان الطريق المستقيم البيان.[3]

1-الاعتدال بالوفاء بالعهد، وبالتمسك بالتوحيد والطاعة، أو بإعطاء كل من الدنيا والآخرة حقها، وبالصبر على البلاء، وبتلاوة القرآن والعمل به، وبتساوي الحسنات والسيئات[4]، قال تعالى: ﴿... فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦۖ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.[5]

إذًا المعنى الأساس الذي نحن بصدد تعريفه هو الأول؛ أي القصد هو طلب الشيء بعينه.

المقاصد في الاصطلاح:

لم يرد تعريف للمقاصد الشرعية عند المتقدمين رحمهم الله، مع أنّ الشاطبي يعد أول من أفرد مقاصد الشريعة بالتأليف، وتوسع فيها بما لم يفعله أحد قبله، إلا أنه لم يورد تعريفًا اصطلاحيًا لها، ربما السبب يرجع إلى أنّ تعريف نظرية المقاصد من الأمور البديهية عندهم، فهم علماء في الفقه وأصوله، لم يكونوا إلا في حاجة إلى إثبات نظرية المقاصد لدى غيرهم، والتأصيل لها

---

1 المصباح المنير، لأحمد الفيومي، ج:02، ص: 504.

2 النحل: 09.

3 انظر؛ المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن وقراءاته، ص: 372.

4 لسان العرب، ابن منظور، باب الدال، فصل القاف، مادة (ق ص د)، ج:03، ص: 353.

5 فاطر: 32.

والدفاع عنها[6] لكن تنوعت عبارات المتأخرين في تعريف المقاصد، فأورد بعضًا منها للتعليق عليها، وأيضًا أن أنتقل منها إلى وضع تعريف لمقاصد العقيدة.

1. المقاصد الشريعة هي؛ "الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد".[7]
2. المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها.[8]
3. المقاصد هي؛ "المعاني والحكم ونحوها التي راعاها الشارع في التشريع عمومًا وخصوصًا من أجل تحقيق مصالح العباد".[9]

إذًا يتضح من التعريفات السابقة أنّ مقاصد الشريعة هي؛ المعاني والحكم والغايات التي جاءت الشريعة لتحقيقها؛ فعلماء المقاصد والمفتون المجتهدون يجعلون الشريعة وسيلة لتحقيق غايات وحكم بالعمل بأحكام الشريعة.

ومقاصد الاعتقاد هي؛ الغايات والحكم والمعاني التي جاءت من أجلها الشريعة أي تحقيق العبودية خالصًا وصوابًا لله وحده لا شريك، وإليه دأبت الأمة على تعلّم الدين الشامل للعقيدة والشريعة معًا حتى يكون العمل مقبولًا، ولذلك فإنّ:" تعليم ما يجب تعليمه، وتفهيم ما يجب تفهيمه، يختلف باختلاف رتبه، وهذان قسمان:

أحدها؛ وسيلة إلى ما هو مقصود في نفسه كتعريف التوحيد وصفات الإله؛ فإن معرفة ذلك من أفضل المقاصد، والتوسل إليه من أفضل الوسائل.

والثاني: ما هو وسيلة إلى وسيلة كأحكام الشرع؛ فإنه وسيلة إلى العلم بالأحكام التي هي وسيلة إلى إقامة الطاعات التي هي وسائل إلى المثوبة والرضوان. وكلاهما من أفضل المقاصد".[10]

لا سيما أنّ المعتقدات تسلك إلى نفوس الناس من عدة جوانب: منها ما هو منطقي سليم، ومنها ما هو مقبول مع تطرق الاحتمال إليه، ومنها ما هو مزيف مرفوض.[11]

الجانب الأول: المنطق السليم اليقيني

وهو الأساس في تكوين العقيدة الصحيحة، ويتحقق عبر ثلاثة مسالك قطعية:

1. **الإدراك الحسي القاطع:** كالإيمان بالوجود والظواهر المحسوسة التي تقود إلى العلم اليقيني والاعتقاد الراسخ. مثلًا اعتقادنا بوجود أنفسنا، وبوجود الأرض من تحتنا، وبوجود السماء فوقنا، وبوجود أشياء كثيرة التي يدرك حواسنا، ويحرك عواطفنا، ويوجه سلوك إلى العلم اليقين.
2. **الاستنتاج العقلي القاطع:** من خلال التحليل والاستدلال العقلي، سواء في القضايا العقلية البديهية أو في التأمل في آيات الكون كما دلّ عليه القرآن، مثلًا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ

---

[6] الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: 01، دار بن عفان، 1997م، ج:01، ص: 124.

[7] انظر؛ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني، ط:02، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1992م، ص:07.

[8] راجع المصدر السابق؛ مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، ص:51.

[9] راجع المصدر السابق؛ مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد بن سعد أحمد بن سعود اليوبي، ص: 37.

[10] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام، ضبط وتصحيح: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ط:02، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2010م، ج:01، ص: 85.

[11] العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط:14، دار القلم، دمشق / سوريا، 2009م، ص:31.

فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[12].

3. **خبر الصادق القطعي**: وهو الوحي الإلهي المنقول عن الأنبياء المعصومين، الذي يتحول بالتصديق والفهم إلى علم يقين ثم إلى عقيدة راسخة. فهذا الخبر إما يرد على لسان الرسول بتصديق كلام الله على عصمة جميع أنبياء الله (عليهم السلام) عن الكذب وسائر المعاصي.

الجانب الثاني: عمل مقبول مع تطرق الاحتمال إليه في الأحكام العملية:

ويتعلق بالأحكام العملية والاجتهادات الفقهية التي يدخلها الظن المعتبر، رحمةً بالناس وتيسيرًا عليهم، دون أن تمس أصول العقيدة القطعية. مثال على ذلك؛ اجتهادات المجتهدين في الحاجيات الخمس حتى لا يشتكي العبد في عبادة ربه ويضعف اعتقاده وإيمانه في الله سبحانه وتعالى.

الجانب الثالث: المسلك المزيف الضال المرفوض:

وهو ما يقوم على الشك، والهوى، والبدع، والتقليد الأعمى، والممارسات التي لا أصل لها في الكتاب والسنة، مما يؤدي إلى الانحراف العقدي والوقوع في الضلال. لأنها تُفسد العقيدة وتبعد عن المنهج النبوي الصحيح. ولهذا شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) على التمسك بالوحي، محذرًا من المحدثات في الدين، وداعيًا إلى الاعتماد على الأدلة القطعية ومخاطبة العقل والفطرة كما فعل القرآن، لما للعقيدة الصحيحة من أثر عظيم في إصلاح الفرد والمجتمع وتوجيه سلوكه.

مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[13].

يتحقق الأساس الثاني في قيام الأمة الإسلامية عندما تجتمع على عقيدة واحدة ومبدأ واحد أنزله الله وهدى إليه جميع المسلمين، فتكون وحدتهم قائمة على الإيمان قبل أي اعتبار آخر. ومن ثمار هذه العقيدة أن تُعَمَّر الدنيا بما يحقق الخير والكمال الإنساني، فتغدو الدنيا مزرعة للآخرة، ويظفر الإنسان بسعادة الدارين. ولا يتحقق ذلك إلا من خلال عمارة الأرض عمارةً رشيدة، تحفظ نظام التعايش بين الناس، وتضمن استمرار صلاح الدنيا بصلاح من استخلفهم الله فيها، حين يلتزمون بما كُلِّفوا به من عدل واستقامة، وصلاح في الفكر والعمل، وإصلاح للأرض مع استنباط خيراتها وتدبير منافعها على وجه يعود بالنفع على الجميع.[14]

وتتعلق العقيدة في جوهرها بقضايا الوجود الكبرى، كالإيمان بالله تعالى، والنبوة، والبعث، وهي القضايا التي يقوم عليها الإيمان والكفر؛ فمن أيقن بها وصدق بها وخضع لها كان مؤمنًا، ومن أنكرها أو شك فيها أو كذب بها كان كافرًا. وهذه هي مقاصد الاعتقاد التي تتميز عن سائر العقائد بخصائصها الفريدة، وهو ما استدعى تناولها بالبحث والتحليل، فنُقسِّم هذا المطلب إلى أمرَين لبيان هذه المقاصد وإبراز معالمها.

الأمر الأول: الشمول والإحاطة

إنّ الشريعة الإسلامية اعتنت بذكر نصوص العقيدة مقرونة بمقاصدها، والحديث عن آثارها العملية، والسلوكية في حياة المسلم، مخاطبته الوجدان القلبي واليقين العقلي على حد سواء.

---

[12] البقرة: 164.

[13] الأنعام:162-163.

[14] انظر المرجع السابق؛ مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علّال الفاسي، ص:46. ونحو تفعيل مقاصد الشريعة، جمال الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالأردن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط:01، 2001م، ص:107-109.

فإنّ آيات الاعتقاد في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة يبين لنا بعضًا من المقاصد التي شرعها الله تعالى للدلالة على مراد الله تعالى من العقيدة، فعدم الاهتمام بمقاصد الاعتقاد أدى إلى ابتعاد المتكلمين، ومن سار على نهجهم عن الهدف الأسمى الذي أراده الله تعالى، والانشغال بقضايا جدلية لا تثمر يقينًا، ولا تضبط سلوكًا.[15]

فمقاصد الاعتقاد لا تتسم بالشمول في مجالاتها فحسب وإنما تتكامل وتترابط ببعضها البعض،على النحو التالي:

1. في مجال الإيمان :

فالإيمان بأركانه المعروفة من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، لا يقوم على مجرد الجمع بين هذه الأركان، بل على ترابطها العميق، إذ يعود كل ركن منها إلى الأصل الأعظم وهو الإيمان بالله تعالى.

أ- الإيمان بالله تعالى: يشتمل إلى المعرفة بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة. كما أنّ المعرفة بالله تعالى توقظ المشاعر النبيلة، وتوقظ حواس الخير وتربي ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالي الأمور وأشرافها، وتنأى بالمرء عن محقّرات الأعمال وسفسافها.

ب- الإيمان بالملائكة: ويرتبط الإيمان بالملائكة ارتباطًا وثيقًا بالإيمان بالله تعالى من جهة القدرة والتدبير، ومن جهة بيان المنهج الإلهي لهداية البشر، كما أنه يرسّخ في النفس معاني الطهارة والانضباط واليقظة، ويبعث على التشبه بهم في الطاعة والخير.

ج- الإيمان بالكتب السماوية يرسم للإنسان معالم الحق والباطل، والخير والشر، ويكشف له المنهج القويم الذي يوصله إلى كماله الإنساني.

د- يأتي الإيمان بالرسل ليجعلهم نماذج عملية للهداية، يُقتدى بهم في الأخلاق والسلوك، باعتبارهم الصفوة التي جسدت القيم التي أرادها الله لعباده.

ه- أما الإيمان باليوم الآخر، بما فيه من بعث وجزاء، فإنه مرتبط بعدل الله وحكمته، ويمنح الحياة معناها الأخلاقي، ويضبط حركة الإنسان بين العمل والمسؤولية.

ي- ويكمل ذلك الإيمان بالقدر الذي يرسّخ الثقة بالله، ويمنح الإنسان قوة نفسية تدفعه إلى العمل، وتجعله قادرًا على مواجهة الشدائد دون يأس أو اضطراب.

وهذا الشمول في مجال الإيمان يمثل أساسًا تربويًا متكاملًا لإعداد الإنسان الصالح القادر على أداء دوره في الحياة بوعي ورشد، حيث يضفي هذا التصور الإيماني على الحياة معنى الجمال والكمال، ويشيع فيها روح المحبة والسلام.

2. في مجال العمل:

ولا تنفصل العقيدة في الإسلام عن العمل، بل يتكاملان تكامل السبب والنتيجة، فالإيمان الصادق يثمر عملًا صالحًا، والعمل الصالح دليل على صحة الإيمان. ولذلك اقترن الإيمان بالعمل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، تأكيدًا على أن العقيدة ليست مجرد قناعة ذهنية، بل قوة دافعة للسلوك الفردي والاجتماعي، وأن صلاح الدنيا والآخرة معًا لا يتحقق إلا بهذا الارتباط الوثيق.[16]

وبهذا الترابط الوثيق يأتي العمل مقترنًا بالإيمان في أكثر آيات القرآن الكريم.

---

[15] مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. عثمان ضميرية، مكتبة السوادي للتوزيع، ط:03، جدّة، 1999م، ص: 388.

[16] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ص:263.

فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.[17]

وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِن فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰة طَيِّبَة وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.[18]

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ منكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنا يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔا وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.[19]

كما أن العقيدة الإسلامية ثابتة في أصولها، لا تقبل التبدل بتغير الزمان أو المكان، ولا تخضع للأهواء أو الآراء، لأنها عقيدة الأنبياء والمرسلين التي جاء بها الوحي، واتفق عليها المؤمنون في كل عصر. وقد كانت هذه الثباتية، مع وضوح الأدلة وصحة البراهين وموافقتها للفطرة والعقل السليم، سببًا في تحقيق سعادة الدارين للعباد.

3. في مجال التسخير:

وفي مجال التسخير، يتجلى مقصد عقدي عظيم، إذ إن تسخير الكون للإنسان يحقق غايتين متلازمتين:

تمكينه من أداء دوره الاستخلافي في عمارة الأرض، وإرشاده إلى معرفة الله ووحدانيته من خلال التأمل في وحدة الخلق وانتظامه[20]. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[21] فالكون المسخّر، وما أُودع في الإنسان من السمع والبصر والعقل، وما وهبه الله من علوم وقدرات، إنما هو نظام متكامل يُراد به إسعاد الإنسان في كل زمان ومكان، شريطة أن يعمل في إطار منهج الله، ملتزمًا أوامره، مجتنبًا نواهيه.مصداقًا بقول جل وعلا؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰما وَقُعُودا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[22] ومن هنا كان النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وتسخيرها منهجًا قرآنيًا جامعًا، يولد الإيمان، ويعمّق اليقين، ويضبط حركة الحياة كلها ضمن إطار الرسالة الخاتمة التي جاءت لهداية البشرية جمعاء، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينا ﴾.[23]

الأمر الثاني: التوازن

مع ما يتسم به مقصد الاعتقاد من شمول وإحاطة، فإنه يقوم كذلك على مبدأ التوازن، وهو توازن شامل يضبط علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبالكون، وبالحياة في مختلف مجالاتها. فهذا التوازن ليس جزئيًا أو عرضيًا، بل هو سمة أصيلة في البناء العقدي الإسلامي، تنبع من كون خالق الإنسان هو خالق الكون، وهو الأعلم بما يصلحه وما يحقق انسجامه مع نفسه ومع محيطه.[24]

---

[17] سورة يونس: الآية: 09.

[18] سورة النحل: 97.

[19] سورة النور: الآية: 55.

[20] صيرورة الكون مدارج العلم ومعارج الإيمان، د. محم باسل الطائي، عالم الكتب الحديث، إربد– الأردن، 2010، ص: 282.

[21] سورة الذاريات: الآية: 56.

[22] سورة آل عمران؛ الآيتان: 190-191.

[23] سورة المائدة، الآية:03.

[24] المصدر السابق؛ مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. عثمان ضميرية، ص: 393. (بتصرف)

فالشريعة التي أنزلها الله تعالى جاءت لتقيم التوازن في حياة الإنسان، فلا تعذيب للجسد باسم السمو الروحي، ولا إهمال للروح بدعوى إشباع الجسد، ولا مصادرة لطاقات الفرد ورغباته المشروعة بحجة مصلحة الجماعة، ولا إطلاق للشهوات المنحرفة بما يضر المجتمع أو يخلّ بنظامه. وقد راعت هذه الشريعة في تكاليفها طاقة الإنسان وقدرته، فجاءت منضبطة بالوسع، بعيدة عن الحرج والمشقة، تحقيقًا لمصلحة الإنسان في دنياه وأخراه. مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾.[25]،وتتجلى مظاهر التوازن فيما يلي:

1. التوازن بين الجسد والروح:

خُلق الإنسان لغاية محددة لا تستقيم حياته إلا بتحقيقها، وهي عبادة الله تعالى عبادةً شاملة تشمل القلب والجوارح معًا. وحين يغفل الإنسان عن هذه الغاية أو يتناساها، يضيع في متاهات الحياة مهما بلغ من تحصيل دنيوي، ولا يستعيد توازنه الحقيقي إلا بالعودة إلى عبادة الله التي تزكّي روحه وتنظم سلوكه. وقد أرشدت الشريعة إلى هذا التوازن من خلال اليسر ورفع الحرج، فلم تطلب من المسلم الانقطاع عن شؤون الحياة أو الزهد في طيباتها، وإنما طلبت إخلاص القلب لله، مع الاستعداد لتقديم مقتضيات العقيدة عند التعارض.مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[26]، وفي الحديث النبوي: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((إنّ الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة))[27]. كما نفت المشقة والتكلف في العبادات، فجاءت التكاليف وسطًا عادلة، تراعي الفطرة والطاقة الإنسانية، وهو ما أكده علماء المقاصد في بيانهم لوسطية الشريعة، فيقول الشاطبي في الموافقات (إنّ الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه الداخل تحت كسب العبد)[28].

فالتوازن بين العقيدة والعبادة أن يكون العابد طوعًا وهو الذي يعبده ويستعينه، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰما﴾.[29]

ومن مظاهر هذا التوازن أيضًا مبدأ التدرج في الالتزام، حيث لا يُحمّل الإنسان ما لا يطيق دفعة واحدة، بل يُنتقل به من الضروريات إلى الحاجيات ثم التحسينيات، ضمانًا الاستمرار والثبات. كما حدث ذلك حينما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل إلى اليمن ليعلم الناس الإسلام على أساس التدرج.

كما يقوم التوازن التعبدي على الجمع بين الخوف والمحبة والرجاء، دون غلو في أحدها، بما يحفظ للعبادة روحها ويمنع الانحراف في السلوك. ويكتمل ذلك بالوسطية بين مطالب الدنيا والآخرة، فلا تُهمَل إحداهما لحساب الأخرى، بل يسير الإنسان في حياته مستحضرًا مسؤوليته الأخروية، دون تعطيل دوره في عمارة الأرض.[30]

2. التوازن بين الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة:

ويتجلى مقصد التوازن كذلك في الجمع بين الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة، إذ فُطر الإنسان على الإيمان بما تدركه حواسه، وبما يتجاوز هذه الحواس من حقائق غيبية. فالعقل والحواس أدوات لمعرفة عالم الشهادة، والتفكر في الكون وآياته، بينما يُسلِّم الإنسان في أمور الغيب لما جاء به الوحي، إدراكًا لحدود العقل البشري. وبهذا التوازن لا يقع الإنسان في إنكار

---

[25] سورة البقرة، الآية: 286.

[26] سورة البقرة، الآية: 185.

[27] أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج: 01، ح:39

[28] كتاب الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، تحق عبد الله دراز، ط: 01، دار الكتب العلمية، 2004م، ص: 315.

[29] سورة الفرقان، الآية: 63.

[30] مجموع الفتوى لابن تيمية، ج: 03، ص: 372. (المصدر السابق).

الغيب بدعوى العقل، ولا في تعطيل العقل بدعوى الإيمان، بل يجمع بينهما في انسجام معرفي متكامل[31]، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[32].

3. التوازن بين الإيمان بالقدر والقضاء والأخذ بالأسباب:

إنّ التوازن بين مشيئة الله تعالى، وإرادة العبد تنحصر على أمرين؛

الأول: أن فعل العبد من صفاته، والعبد وصفاته مخلوقان لله تعالى.

الثاني: أنّ فعل العبد صادر عن إرادة قلبية وقدرة بدنية، لولاهما لم يكن فعل، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله تعالى، وخالق السبب هو الخالق للمسبب، فنسبة فعل العبد إلى فعله كسبًا وتحصيلًا، وأما نسبة مشيئة الله خلقًا وتقديراً[33].

فالمسلم يعمل ويجتهد، ويأخذ بأسباب النجاح، ويفهم سنن الكون والحياة، دون أن ينفصل قلبه عن التوكل على الله، فيعيش متوازنًا بين الفاعلية الإنسانية والتسليم الإيماني[34]، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[35].

4. التوازن بين جوانب الحياة المختلفة:

يمتد هذا التوازن ليشمل جوانب الحياة كلها، فلا يطغى الجانب السياسي على الاقتصادي، ولا الاقتصادي على الأخلاقي، ولا الروحي على العملي، بل تنتظم هذه الجوانب جميعًا حول محور العقيدة، التي تضبط حركة الإنسان وتوجهها نحو العدل وتحقيق مقاصد الاستخلاف. ومن تمسك بهذا المنهج المتوازن، وسعى إلى إقامة الدين في واقع الحياة، كان مشمولًا بوعد الله بالتمكين والأمن والاستخلاف، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[36].

وهكذا يتبين أن التوازن سمة كونية وربانية شاملة، تتجلى في خلق الكون، وفي خلق الإنسان، وفي المنهج الذي أنزله الله لهدايته. فكل ما في هذا الوجود قائم على نظام دقيق، وتناسق محكم، يشهد بوحدانية الخالق وحكمته، ويدل على أن هذا الكون لم يُخلق عبثًا، وإنما خُلق لهدف وغاية، تُدرك بالعقل، وتُصدَّق بالفطرة، وتُستكمل بالوحي، كما دلّ على ذلك القرآن الكريم في آيات الآفاق والأنفس، فقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَ لَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[37].

المطلب الثاني: المقصد الدعوي

الدعوة في الإسلام هي عملية بيانية تهدف إلى توجيه الإنسان نحو الله تعالى، وإرشاده لتحقيق غاياته وفق الضوابط الشرعية، والعمل على الاستقامة على الطريق الذي رسمه الله تعالى لعباده. فهي تشمل بيان الحق، وتعريف الناس بأوامر الله ونواهيه،

---

[31] خصائص العقيدة الإسلامية وآثارها من خلال تفسير الظلال لسيد قطب، فراس فريد أبو بكر، رسالة الماجستير في أصول الدين في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ص:53.

[32] سورة النمل؛ الآية: 65.

[33] رسائل في العقيدة، ص: 37 المرجع السابق.

[34] راجع؛ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط: د.ت، ص: 126.

[35] سورة التوبة، الآية: 51.

[36] سورة النور؛ الآية: 55.

[37] سورة فصلت، الآية: 53.

وتربية القلوب على الإيمان والعمل الصالح، وهو ما أكده الله تعالى في قوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[38].

الهدف الأول للدعوة هو تعريف العباد بخالقهم، وإيضاح حقوقه عليهم، وحقوقهم عليه. ويتجلى ذلك في تحقيق التوحيد، وتجريده بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن كل أشكال الشرك، وهو الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[39]. فمعرفة الله تعالى لا تقتصر على الإيمان بوجوده، بل تشمل العلم بحقوقه واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والالتزام بالعبادة والطاعة وفق ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام.

الهدف الثاني هو نشر الخير والصلاح، ومحو الشر والفساد. فالدعوة الإسلامية تهدف إلى كل قول وعمل فيه خير للإنسان والمجتمع، وتنهى عن كل ما يسبب الفساد والضرر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[40]. ويشمل ذلك تحصين المسلم ضد الأفكار الضارة، وزيادة إيمانه لتقوية العبودية لله تعالى على الوجه الأكمل.

الهدف الثالث هو تعارف الشعوب وتوحيد الأمم ونشر السلام بينها. فالدعوة تهدف إلى بناء مجتمع عالمي متماسك على أساس الإيمان بالله الواحد، واتباع رسله جميعًا، وتحقيق التعاون والتفاهم بين الأمم. وهذا يسهم في جعل الأرض دارًا صالحًا للعبادة والعمل الصالح، وتمكين الناس من أداء مهمتهم في عمارة الكون على ضوء تعاليم الله تعالى.[41]

ويظهر من هذا أن مقاصد الدعوة تتسم بالشمول والتوازن، فهي تعمل على ترتيب أولويات الإنسان بين الضروريات والحاجيات والتحسينات، وتربطه بوحي الله تعالى كمصدر أساسي للمعرفة والهداية، لتكون حياته مبنية على التوحيد والعدل والخير، ويحقق الإنسان من خلالها الهدف الأسمى لوجوده على الأرض، وهو عبادة الله على الوجه الأكمل، كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[42].

إذًا الدعوة الإسلامية تشتمل على أبعاد متعددة: **عقدية، علمية، عملية**، وتشمل جميع جوانب الحياة الداخلية والخارجية للإنسان. وتتركز رسالة الدعوة في أمور أساسية منها:

- إحقاق الحق ودحض الباطل.
- نشر العدل ورفع الظلم.
- تعزيز الصلاح ومحو الفساد، والوقاية من النقمات الإلهية.
- تعزيز الأخوة والمحبة والأمن والاستقرار بين الناس.
- تحقيق سعادة عباد الله في الدارين.

فالدعوة تبدأ من ذات الإنسان نفسه، إذ يلزم إدراك الإنسان لذاته، وتطوير علومه وعقله، بما يمكّنه من القيام بمهمة الاستخلاف في الأرض، كما أكد محمد إقبال في فلسفته على أهمية **استقلال الذات (خودي)** وفهم أسرارها[43]، وهو ما ينسجم مع

---

[38] سورة يوسف، الآية: 108.

[39] سورة الذاريات، الآية: 56.

[40] سورة النحل؛ الآية 90.

[41] من مقال (مقاصد الشريعة) الزحيلي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة الكويت، السنة السادسة، عدد 06، 1402هـ – 1403هـ.

[42] سورة الحج، الآية: 37.

[43] ديوان محمد إقبال (الأعمال الكاملة)، السيد عبد الماجد الغوري، ج:01، ط:03، دار ابن كثير، 2007م، ص:120

فكرة ابن تيمية في رفض فلسفة وحدة الوجود، واعتبار الإنسان خليفة الله في الأرض مستعينًا بعلمه وعمله لتحقيق مصالح البشرية.[44]

إذًا يشتمل مقصد دعوي إلى الأمرَين مهمَين:

الأمر الأول: شمول مقاصد الدعوة من حيث الأسس العقدية والعلمية والعملية؛

مقصد الدعوة في الإسلام يتسم بالشمول والتكامل بين **العقيدة، والعلم، والعمل**، وهو ما يجعلها متكاملة في أهدافها ووسائلها. ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

1. موضوع الدعوة

ركزت دعوة جميع الأنبياء على ترسيخ أسس العقيدة، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ...﴾[45]، وكذلك رسل عاد وثمود وموسى وشعيب عليهم السلام. والدعوة تبدأ بالعقيدة كأساس، ثم معالجة مشكلات المجتمع وتأثير ذلك على العبادة والطاعة.كما قال العلامة عبد العزيز بن باز (رحمه الله): فالدعوة الناجحة الصحيحة لابد أن تنطلق من الأسس العقدية، فيجب على الداعي أن يوضح للناس ما أوضحه الرسل، وهو الدعوة إلى صراط الله المستقيم، وهو الإسلام الحق، كما قال تعالى:كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[46]. وقد بيّن رحمه الله الأصول العامة، والخطوط العريضة للإسلام والتي يجب على الداعي أن يدعو إليها وهي تشمل؛

- الدعوة إلى الإخلاص لله وحده، وتوحيد العبادة، والإيمان برسله واليوم الآخر.
- الدعوة إلى الواجبات الشرعية: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعاملات، والنكاح، والطلاق، والجنايات، والنفقات، والحرب والسلم، وكل ما شرع الله لعباده.
- الدعوة إلى مكارم الأخلاق، والابتعاد عن الرذائل، لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة.[47]

2. العلم بالدعوة:

يجب على الداعي معرفة الواقع الدعوي وحال المدعوين، وهو ما يجعل دعوته ناجحة وفعالة. ويتحقق ذلك من خلال:

1. معرفة أصناف المدعوين ومستويات ثقافتهم وبيئتهم الاجتماعية.
2. مراعاة أساليب الدعوة المناسبة لكل فئة: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما بيّن ابن تيمية، فالناس ثلاثة أقسام:

- **الحكمة:** لمن يعترف بالحق ويعمل به.[48]
- **الموعظة الحسنة:** لمن يعترف بالحق لكنه لا يعمل به، فيحتاج إلى الإقناع والتحفيز على العمل الصالح.
- **الجدال بالتي هي أحسن:** لمن لا يعترف بالحق، فيُجادل بأسلوب حسن وراقي لتوضيح الحقائق، مع مراعاة الاحترام وحسن النية[49]، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ

[44] راجع المصدر السابق؛ ديوان محمد إقبال؛ ج:01، ص:123.

[45] سورة الأعراف، الآية: 59.

[46] سورة النحل، الآية: 125.

[47] انظر إلى؛ الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ص:11-13.

[48] البصيرة في الدعوة إلى الله، عزيز بن فرحان العنزي، ط: د.ت، ص:68.

[49] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج:2، ص:45.

أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[50].

ويستلزم ذلك استخدام **وسائل العصر الحديثة**، كالعلوم، والإدارة، والتخطيط، والإعلام، بما يسهم في إيصال الدعوة بفاعلية، كما أشار الشيخ عبد العزيز بن باز: "أنجح الطرق في هذا العصر وأنفعها استعمال وسائل الإعلام لأنها ناجحة، وهي سلاح ذو حدين، فإذا استعملت في الدعوة إلى الله أُفادت الأمة أينما كانت".[51]

[50] سورة آل عمران، الآية: 64.

[51] مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، التوحيد وما يلحق به، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز، ط: 01، دار القاسم، الرياض مملكة العربية السعودية، 1420هـ، ج:02، ص:452.

3. الأسوة الحسنة:

يتعين على الداعي **أن يكون قدوة في الأقوال والأفعال**، وأن يطبق ما يدعو إليه، مثلما كان الرسل (عليهم السلام) دعاة إلى الله تعالى بالأقوال والأفعال، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يزور الناس، ويغشاهم في أسواقهم ومجامعهم، وكان يكلمهم ويدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وكان يستقبل الوفود، ويعفو عمن ظلمه، ويحلم على من أساء إليه، وكان دائم الذكر والفكر[52] مستندًا إلى ضوابط الشريعة، بما يشمل:

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، وفق مراتب: باليد، باللسان، بالقلب، مع مراعاة ما يقع ضمن اختصاص الولاة وما يقع ضمن مسؤولية الفرد الداعي. مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[53].وكما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): " من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[54]. الخطاب هنا للجميع، وكلمة (من) هنا تشير إلى العموم من العقلاء، والمنكر يشير إلى باب التخصيص الذي رأى حدوثه فلينكره. فالمعروف الذي أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم به يشمل **شرائع الإسلام** الأساسية التي تقوم عليها حياة المسلم، مثل المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، وأداء الزكاة المفروضة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا. كما يدخل في المعروف الإيمان بأصول العقيدة، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، لما لذلك من أثر عظيم في استقامة القلب والعمل.
- تعزيز مكارم الأخلاق على مرتبة **الإحسان**، وهي أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، وهو مقام يورث المراقبة والخشية والإخلاص. ومن المعروف أيضًا الأعمال الباطنة والظاهرة التي تتعلق بإصلاح القلب والسلوك، مثل إخلاص الدين لله تعالى، والتوكل عليه، ومحبة الله ورسوله فوق كل شيء، والرجاء في رحمته، والخوف من عذابه، والصبر على قضائه، والتسليم لأمره. كما يدخل في المعروف الصدق في الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات إلى أهلها، لما في ذلك من حفظ للحقوق واستقامة للمعاملات. ومنه أيضًا برّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والصاحب، والزوجة، ومن كان تحت يد الإنسان، لما في ذلك من ترسيخ لقيم الرحمة والتكافل الاجتماعي.
- اجتناب المنكرات التي نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه فهي كل ما تفسد العقيدة أو تخلّ باستقامة الإنسان في دينه ودنياه، وأعظمها الشرك بالله، العبادات المبتدعة، القتل الباطل، أكل أموال الناس بالظلم، والاعتداء على حقوق الآخرين.

فالداعي مسؤول أمام الله عن علمه وعمله معًا، لأن ما يحمله من مقاصد وغايات دعوية ليس مجرد شعارات، بل واجبات يجب تحقيقها في واقع الحياة، بما يمكّن الإنسان من أن يعيش حياة راشدة مستقيمة في الدنيا. وهذه الحياة الراشدة هي التي تقود في النهاية إلى ثواب الله تعالى ورضوانه في الآخرة، لأن الإنسان خُلق ليكون خليفة في الأرض، يقوم بعمارتها وفق منهج الله. ولذلك فإن التمكين في الأرض لا يتحقق عشوائيًا، بل له شروط واضحة ينبغي على المسلم بوجه عام أن يعيها ويدركها، حتى يؤدي دوره الاستخلافي على الوجه الذي يرضي الله تعالى.

---

[52] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، حققه د. صلاح الدين المنجد، ط:01، دار الكتاب الجديد، بيروت/ لبنان، 1976م، ص:11

[53] سورة آل عمران؛ الآية: 104.

[54] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (20)، ج:01، ح:78.

الأمر الثاني: التوازن في المقصد الدعوي:

التوازن ليس في فطرة الإنسان وحده. ولكن التوازن قائم في خلق الله كله، قائم في الكون كله: في السماوات والأرض، في النجوم والشمس والقمر، في الجبال والوديان، في اليابسة والبحار، في الرياح والأمطار، في الثروات الموزعة في الأرض. إنّه يكشف لنا دقّة التوازن وعدالته في حكمة ربانية بالغة، وإعجاز رباني بالغ.

وقد عرض القرآن الكريم صورًا متعددة لهذا التوازن الكوني، مبينًا أن كل شيء خُلق بقدر وميزان، وأن ما يكتشفه الإنسان من قوانين وسنن في الكون ما هو إلا كشف متتابع لآيات هذا التوازن الذي يمسك بعضه بعضًا، كما دلّت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كما جاء في قول الله تعالى:﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾[55].

ومن هنا يتبين أن الخلل الذي يقع فيه بعض الناس ناتج عن الخلط بين المبادئ الدينية والمفاهيم الإسلامية، مما يؤدي إلى الإفراط في بعض الأحكام والتفريط في أخرى، فتظهر صور الغلو والمغالاة، أو التقصير والإهمال. ويأتي التوازن في الدعوة إلى الله ليضع الحد الفاصل بين الغلو في الدين عقيدة وسلوكًا، وبين الالتزام الصحيح الشامل بأحكام الإسلام، وهو ما عبّر عنه العلماء بمفهوم الاقتصاد، أي الاعتدال والاستقامة والتوسط في شؤون الدين كلها دون تشدد ولا تسيب.[56]

فالإسلام لم يقتصر على ترسيخ العقيدة والإيمان بالغيبيات، بل جاء بمنهج متكامل ينظم علاقة الإنسان بربه، ويهذب علاقته بنفسه، ويضبط علاقته بغيره من الناس، وجاء هذا التنظيم قائمًا على العدل والوسطية، محققًا التوازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد ومتطلبات العقل، كما أقام التوازن بين شؤون الدنيا والآخرة، فحث على العمل للآخرة دون إهمال نصيب الإنسان من الدنيا، وربط الإحسان بالمسؤولية، ونهى عن الفساد في الأرض. مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[57].

كما وجّه الإسلام غرائز الإنسان وعواطفه توجيهًا متزنًا يحفظ كرامة الفرد ويحقق مصلحة المجتمع والأمة، وأقام علاقة متوازنة بين الفرد والدولة، فلا يُترك الفرد ليعبث ويُفسد، ولا تُعطى الدولة سلطة مطلقة تظلم بها الأفراد وتسلبهم حقوقهم، بل يقوم الجميع على أساس العدل والمسؤولية المتبادلة.

وقد اختار الله تعالى هذه الأمة لتكون أمة وسطًا، عادلة في سلوكها، شاهدة على غيرها من الأمم، حاملة لآخر رسالة إلهية خالدة، كاملة في تشريعها، صالحة لكل زمان ومكان. ويتوافق منهج التوازن والاعتدال في الإسلام مع الفطرة البشرية، لأن الإنسان خُلق ضعيفًا محدود القدرة، فجاءت الأحكام الشرعية ملائمة لطبيعته، مراعية لطاقته، منسجمة مع فطرته، إذ إن الله سبحانه هو الأعلم بخلقه والأدرى بما يصلحهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[58].

1. التوازن منهج ومقصد دعوي في التسخير:

يتأسس التوازن بوصفه منهجًا ومقصدًا دعويًا في باب التسخير على أن الله سبحانه وتعالى هو واضع هذا المنهج القائم على الاعتدال، لأن التوازن سنّة كونية وحقيقة شرعية تحكم نظام الوجود كله، ويظهر بوضوح في العقائد والشرائع كما يظهر في الكون. ومن خلال القرآن الكريم والسنة النبوية يتبين أن التوازن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالخيرية والعدل، فلا يتحقق توازن حقيقي

---

[55] سورة الحجر؛ الآية: 19.

[56] المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص: 404.

[57] سورة القصص؛ الآية: 77.

[58] سورة الملك؛ الآية: 14.

من غير عدل، ولا تقوم الخيرية إلا على أساس العدل، وهو ما يميز الأمة الإسلامية بوصفها أمة وسطًا. كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[59].

ويقوم المنهج المتوازن في الدعوة على أسس عقدية واضحة، في مقدمتها التوحيد الخالص لله تعالى، والإيمان بجميع الأنبياء والرسل من غير تفريق بينهم، والإيمان بالحياة الآخرة مع عدم إهمال متطلبات الحياة الدنيا، بحيث يسعى المسلم إلى التوفيق بينهما دون تعارض أو انفصال. كما يؤكد هذا المنهج على الإيمان بالقضاء والقدر، وبالبعث والنشور، وبالجزاء العادل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب. مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[60].

2. التوازن في الإعداد والتنفيذ:

إصلاح النفس هو الأساس الذي تُبنى عليه فاعلية الدعوة وأثرها في الواقع. فالداعية لا يستطيع أن يبلغ رسالة الإسلام على وجهها الصحيح ما لم يكن قد استوعب معانيها وسلك طريقها في سلوكه العملي، إذ إن الدعوة بالقدوة أبلغ من الدعوة بالكلمة.

ويتحقق هذا التوازن من خلال إعداد الداعي إعدادًا متكاملًا يشمل العقل والقلب والنفس والعمل؛ فالعقل يحتاج إلى تغذيته بالعلم الشرعي والمعرفة النافعة حتى تتسع مداركه ويُحسن فهم الواقع وتنزيل الأحكام عليه، والقلب بحاجة إلى إيمان متجدد يرسّخ الإخلاص واليقين ويمنح الداعي قوة روحية دافعة للاستمرار، والنفس تحتاج إلى تزكية دائمة تضبط شهواتها وتوجهها نحو العبودية لله تعالى، أما السلوك والحركة في الحياة فيجب أن يكونا منضبطين بمنهج الإسلام ليكون للداعي أثر إيجابي ونافع في المجتمع.

ويؤكد القرآن الكريم أن الخير كامن في الفطرة الإنسانية، لكنه قد يُحجب بالجهل أو الانحراف، ومن هنا تأتي مهمة الداعية في مخاطبة هذا الخير وإبرازه بالحكمة والبصيرة. وقد عرض القرآن نماذج لذلك، كإيمان السحرة بعد زوال الجهل، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾،[61]وإسلام ملكة سبأ حين بلغها الحق واتضحت لها الآيات، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[62] مما يدل على أن كثيرًا من الناس ليسوا معاندين للحق، وإنما تائهين عنه، ويحتاجون إلى من يدلهم عليه.

وتقوم مسؤولية الدعوة على توازن مشترك بين الداعي والمدعو؛ فالداعي مطالب ببذل الجهد في البلاغ والإصلاح، والمدعو مطالب بالسعي إلى معرفة الحق وقبوله، وبهذا يتحقق التكامل في أداء الرسالة الدعوية، وتكون الدعوة وسيلة لإنقاذ الإنسان وإصلاح المجتمع، مصداقًا بقول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[63].

---

[59] سورة آل عمران، الآية: 110.

[60] سورة البقرة، الآية: 136.

[61] سورة الشعراء، الآيتان: 47-48.

[62] سورة النمل، الآية: 43.

[63] سورة الحج، الآية: 78.

ويُعدّ ضعف التزام بعض الدعاة بما يدعون إليه من أبرز أسباب تعثر الدعوة في الواقع المعاصر، إذ تفقد الكلمات أثرها إذا خالفتها الأفعال. ولذلك فإن نقطة الانطلاق الحقيقية لإصلاح المجتمع تبدأ من الداعي نفسه، بتزكية النفس، وتعميق الصلة بالله تعالى، واستشعار المسؤولية الملقاة على عاتقه في حمل رسالة الإسلام وتحقيق مقاصدها.

المطلب الثالث: مقصد الاستخلاف

بدأت مهمة الاستخلاف مع وجود الإنسان على الأرض بإرادة إلهية صريحة، كما أخبر الله تعالى الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض. ومن خلال هذا الإعلان الإلهي تتضح أهمية الإنسان ودوره في الأرض، إذ إنه مكلف بإقامة العبودية لله وتحقيق غاية الخلافة. وقد زوّد الله الإنسان بما يؤهله للقيام بهذه المهمة، وهو ما يتجلى في تعليمه الأسماء كلها كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ...﴾[64]، وهذا التعليم دليل على قدرة الإنسان على الفهم والإدراك والتصرف وفق إرادة الله في الأرض، بما يحقق غاية الاستخلاف من إقامة العبودية للّه وتنظيم الكون وفق سننه.

وقد شُرّف الإنسان بمؤهلات روحية وعقلية وجسمانية، تجعله قادرًا على تحقيق السيادة على المسخرات من خلق الله، وهو ما يتوافق مع عهد العبادة الذي أخذه الله على بني آدم قبل بداية مهمة الاستخلاف، كما بيّن الله تعالى ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ ...﴾[65]. فالعهد الإلهي هو الأساس الذي يقوم عليه الاستخلاف، ويضمن للإنسان القدرة على أداء مهمته بشكل صحيح، وإلا فإن أي تقدم علمي أو مادي لا يحقق غاية الخلافة دون هذا الالتزام الروحي والأخلاقي.

الاستخلاف في الأرض ليس نيابة عن الله عز وجل بمعنى الغياب أو الحاجة، بل هو استخلاف تشريف وتكريم، حيث يبقى الله حاضرًا ومدبرًا، والإنسان مستخلف عن الآخرين من البشر والأمم، وذلك لتحقيق العدل والخير في الأرض[66]، وفي هذا يقول الراغب الأصفهاني إن الخلافة تكون تشريفًا للمستخلف[67]، كما يؤكد الدكتور فاروق أحمد الدسوقي أن الخليفة ليس نائبًا عن الله لغيابه، بل هو مكلف من الله بالابتلاء والقيام بالوظيفة المكلف بها، مع بقاء القدرة والسيادة لله سبحانه وتعالى.[68]

والاستخلاف يتطلب تسخير كل ما في الكون من خيرات وقدرات للإنسان، ليؤدي مهمته على الوجه الصحيح، وهذا التسخير ليس مجرد امتياز، بل مسؤولية عظيمة، حيث يُقاس تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات بمدى تحمله لهذه المسؤولية وتحقيقه للعبادة والعمل الصالح. ومن هنا يظهر أن الاستخلاف لا يقتصر على الجانب الروحي أو العقائدي، بل يمتد ليشمل كل أبعاد الحياة، حيث تتفاعل عناصر الأرض والثروات المسخرة مع إرادة الإنسان المؤمن لتحقيق الأهداف المنشودة.

وبناءً على ذلك، تتضح أركان الاستخلاف في التسخير، وهي: المستخلِف وهو الله عز وجل، المستخلَف وهو الإنسان، ومجال الاستخلاف وهو الأرض وما فيها من خيرات، ويكون الاستخلاف صحيحًا عندما يسود التوازن والتناسق بين هذه الأركان في جميع مجالات الحياة. ومن هذا المنطلق، يتفرع المطلب إلى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: شمولية الاستخلاف في التسخير، وتتضمن مرحلتين أساسيتين هما:

المرحلة الأولى: الاستخلاف العام

يقصد به الاستخلاف للجماعة البشرية الصالحة ككل، حيث يتضح من مضمون آيات الاستخلاف أن الله سبحانه وتعالى استخلف آدم وذريته على الأرض تشريفًا وتكريمًا لهم، وحملهم أمانة عمارتها، وتميز الإنسان عن سائر المخلوقات بقدرة الإدراك

---

[64] سورة البقرة، الآية: 31.

[65] سورة الأعراف، الآية: 172-173.

[66] الخلافة في الأرض، د. أحمد حسن فرحات، الناشر: دار عمار الأردن، ط:01، 1423هـ، ص: 11.

[67] المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ج: 01، ص: 139. (المرجع السابق)

[68] الخلافة الإسلامية حقيقتها وأصولها الاعتقادية وحتمية عودتها، ط: 01، (د. م. ن)، 1998م، ص:294.

وحرية الإرادة، ليكون الابتلاء في الأرض فرصة للمحاسبة في الآخرة[69]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ...﴾.[70]

ويشمل الاستخلاف العام ثلاثة أقسام متداخلة وهي:

1. **الاستخلاف التكويني**، وهو ذلك الذي يُسخّر فيه الله تعالى الأرض للإنسان ليتمكن منها ويعمرها وفقًا لما يحقق العبودية والخير، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ...﴾[71]، ويُفسّر بأن الإنسان هو الذي يسكن الأرض ويعمرها لما يحقق معيشته وعبادته[72]، ويتطلب ذلك من الإنسان الالتزام بالشروط الشرعية التي تكفل له النجاح في أداء مهمة الاستخلاف وتحقيق الخير لكل ما حوله. فالحياة في الأرض تمثل فرصة امتحان وابتلاء لاكتشاف قدراته والارتقاء بها، بما يضمن أن تكون عبوديته لله سبحانه وتعالى سببًا في عمارة الأرض وإصلاحها[73].
2. **الاستخلاف الاجتماعي**: ويعني أن تستخلف أمة بعد أخرى في مساكنها وأرضها، ويؤكد القرآن هذا المعنى في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ...﴾[74]. ويتضح من هذه الآية أن طبيعة الاستخلاف عمل جماعي مؤسسي، لا يتحقق إلا بوجود جماعة صالحة تتصف بصفات المؤمنين الأوائل الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعناية، ليكونوا اللبنة الأساسية في نشر القيم والمبادئ الإسلامية، وتوطيد الاستقرار في الأرض، ومواجهة المحن والابتلاءات التي مرت بها الأمة.
3. **الاستخلاف التمكيني**: ويعني اتصال الإنسان بربه وإظهار ربوبيته من خلال تحقيق عبوديته لله تعالى، وهو الاستخلاف الذي يقوم على ركيزتين أساسيتين. الركيزة الأولى هي الفاعلية الذاتية للإنسان، المتمثلة في قدراته العقلية والعملية، مثل علم آدم بالأسماء، التي تمكنه من فهم الكون وتنظيم موارد الأرض، وتعزز من فاعليته وقدرته على التنفيذ[75]. أما الركيزة الثانية فهي تسخير الله للأشياء والكائنات في الأرض لصالح الإنسان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ...﴾[76]، وقد بين الله أيضًا تفضيله للإنسان على كثير ممن خلق، وتمكينه من الانتفاع بالنعم الكونية المتعددة، من الأنعام، والجمال، والخيول، والشمس، والقمر، والسحاب، والأمطار، والبحار، والأسماك، وغيرها من المسخرات التي تتنوع في الأرض والسماء.[77]

ثانيًا: الاستخلاف الخاص

وهو ذلك الذي خص الله به الأنبياء والرسل والصالحين من ذريتهم، ليكونوا خلفاء في تبليغ رسالته، وإقامة العدل بين خلقه، ويعرف أيضًا بالاستخلاف بالاصطفاء، ويظهر في اختيار الله سبحانه وتعالى لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران كخلفاء

---

[69] خلافة الإنسان، دروس من فكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر، مركز نون للتأليف والترجمة، ط:01، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، 2011م، بيروت/ لبنان، ص:11.

[70] سورة النور، الآية: 55.

[71] سورة البقرة، الآية:30.

[72] تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ط:01، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2005هـ، ج:06، ص:149.

[73] استخلاف الإنسان في الأرض، أحمد دسوقي، ص:18. (المرجع السابق، بتصرف)

[74] سورة يونس، الآية :14.

[75] وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم دلالاتها وأبعادها الحضارية، د. محمد زرمان، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد السادس عشر، 1998م، ص: 205.

[76] سورة الأعراف، الآية: 10.

[77] المرجع السابق، وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم ودلالاتها وأبعاده، ص: 208.

ومرشدين للبشرية، وهو اختيار يمتد من الأصول إلى الفروع لضمان استمرار رسالة الله وهداية البشرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ...﴾[78]، مشيرًا إلى امتداد الاصطفاء من آدم ونوح إلى ذريتهم، بما يشمل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي اصطفاه الله ليكون أداة تحقيق الاستخلاف الخاص من خلال رسالته وتعليمه وإرشاده للناس، مع ما وهبه الله من فضائل وميزات ومقامات.[79]

وبالتالي، يتضح أن مهمة الاستخلاف على الأرض تمثل المقصد الأساسي الذي تتفرع عنه جميع المقاصد الإلهية الأخرى، سواء كانت مقاصد إنسانية عامة أو إسلامية خاصة، فهي تشمل الأبعاد الفردية والاجتماعية والكونية للإنسان، مع التأكيد على المسؤولية الكبرى للإنسان في يوم القيامة عن معتقده وسلوكه، في حين يقتصر الاستخلاف الخاص على التكليف والامتحان للمؤمنين الذين يُمارسون القيادة والريادة لتحقيق إرادة الله في الأرض وإقامة العدل والخير، كما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾.[80]

الأمر الثاني:التوازن والتناسق

وهو قدرة الإنسان على تطبيق هذه المسؤوليات بطريقة متكاملة بين ذاته والآخرين والكون المحيط به، بما يحقق مقاصد الدعوة والإيمان والعمل الصالح.

إنّ مقصد الاستخلاف في القرآن الكريم يحدد العلاقة بين محاور الوجود الثلاثة: المستخلِف وهو الله سبحانه وتعالى، والمستخلَف وهو الإنسان، والمستخلف فيه وهو الكون. وقد اجتهد علماء السلف في تحليل المفاهيم القرآنية الرئيسة المتعلقة بالتوحيد والاستخلاف والتسخير، واستخلصوا من خلالها النتائج التكليفية كنقطة انطلاق لفهم مسؤولية الإنسان في الأرض.

يتحقق توازن الاستخلاف بين الأبعاد الثلاثة عبر عدة عناصر أساسية،

1. الأخذ بالأسباب المادية المرتبطة بالمسببات في الكون، حيث يُطلب من الإنسان السعي، والنظر، والبحث، والتفكير،
2. الاستفادة من المسخرات الكونية،
3. واستخدام مواهبه الذاتية، بدءًا من حواسه وانتهاءً بعقله، من أجل تحقيق رفاهية الإنسان وسعادته في الحياة الدنيا.

ويستلزم هذا التوازن إدراك الإنسان لعالمين مترابطين: العالم المشهود الذي يضم الكون المسخر والإنسان المستخلف، ويدرك بالإحساس والتفكير والتصور، والعالم المأمور فيه الذي يضم أوامر الله ونواهيه، ويُدرك بالوحي المقروء، وكلا العالمين يتطلب إرادة الإنسان ومسؤوليته القيادية، ويُحاسب عليها يوم القيامة، لكي يتحقق مقصد الاستخلاف الكلي.[81]

وتكتمل هذه المقاصد بتحقيق التوازن بين فهم الأحكام الإلهية وتطبيقها على أرض الواقع، على النحو التالي:

- **إظهار الإنسان مسؤولية الحكم والقيادة والمحاسبة عليها بين يدي الله تعالى:**

تختلف خلافة الجماعة الإسلامية عن نظم الحكم الديمقراطية الغربية، إذ في الإسلام تكون الجماعة مسؤولة أمام الله، وحاكمية الله وهي صفة يتحقق معها العدل والحق، على عكس الجماعات الغربية التي تتمتع بالسيادة دون التزام ديني أو محاسبة عليا. وقد بيّن الإمام الغزالي أنّ الحكم في الإسلام مرهون بالشرع، فلا استحقاق للسلطة إلا لمن يلتزم بأمر الله

[78] سورة آل عمران، الآية: 33.

[79] البرهان على إعجاز القرآن، عبد العزيز الشناوي، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ط:01، 1999م، ص: 75-76.

[80] سورة النور، الآية:55.

[81] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج:01، ص: 38.

ورسوله، فالحاكم لا يصدر حكمًا إلا بإيجاب طاعة الله تعالى[82]. وتؤكد الآيات الكريمة أن الحكم كله لله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ ...﴾[83]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ... أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ...﴾.[84]

- **إظهار الاستخلاف كمقصد متوازن بين الشريعة والعمران:**

فالشريعة تهذب النفس وتزكيها، وتأهلها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بينما العمران يختص بتنظيم الحياة المادية، من بناء مساكن، وتوفير الأمن والمأوى، والعمل، والبيئة المناسبة لنمو المجتمع، بما يتوافق مع تقوى الله وحقوق الإنسان.[85]

وقد أبرز القرآن الكريم هذا التوازن عبر قصص الأمم والحضارات السابقة، مثل عاد وثمود وفرعون، اللاتي انهارت حضاراتها بسبب الطغيان والانحراف الأخلاقي[86]، بينما أسس النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعًا متوازنًا يجمع بين العبادة والعمران، ويؤكد المساواة والتعاون بين البشر من مختلف الأعراق والثقافات.[87]

- **إظهار التوازن بين الأسباب المادية والمعنوية في الاستخلاف:**

يؤكد القرآن الكريم على ضرورة التوازن بين الأسباب المادية والمعنوية في حياة الإنسان، حيث يشمل ذلك:

1. **الأسباب المعنوية الإيمانية:** كالاعتماد على الله تعالى (التوكل)، والعبادة، وذكر الله، والصبر، والتقوى، واتباع هدي القرآن والسنة، لتتحقق الطمأنينة والقناعة في قلب الإنسان، ويعيش الإنسان في استقرار نفسي وروحي، بعيدًا عن الظنون والاستنتاجات غير الثابتة، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.[88]
2. **الأسباب المادية:** كالكسب المشروع، ووسائل العيش المباحة، والملبس، والمأوى، والحصول على الموارد اللازمة لتحقيق كفاية الإنسان المادية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ ... وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾.[89]

غاية الاستخلاف

الغاية القصوى من الأخذ بالأسباب واستخدام المسخرات الكونية هي تحقيق **الأمان، والاطمئنان، والكفاية، والتعاون السلمي بين أفراد المجتمع**، بحيث يقوم المجتمع على المحبة والتفاهم والعدل، بدلًا من الأنانية والتفاخر،على النحو التالي:

أ– الأمان: يشمل الأمن على النفس والمال والعائلة والعباد والبلاد، وحمايتها من الخوف والاضطراب.

ب – الاطمئنان: هو السكون والاستقرار النفسي واليقين في القلب من خلال ذكر الله والعبادات، والاعتماد على البصيرة والثقة بعلم الله وحكمه.[90]

ج – الكفاية المعنوية: تشمل التعايش السلمي بين الناس، والمحبة، والتسامح، وعمارة دور العبادة مثل صلاة الجماعة، التي تربط بين المسلمين، وتحقق التودد والتعاون، وتظهر قوة المجتمع وصدقه في مواجهة الفساد والعدوان.

---

[82] المستصفى للغزالي، ص: 66.

[83] سورة الأنعام، الآية: 57.

[84] سورة الأعراف، الآية: 54.

[85] نظريات العمارة، حكم طاهر، ص:9-10 بتصرف.

[86] الحضارة، د. حسين مؤنس، سلسلة متب ثقافية يمدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ط:01، عالم المعرفة، الكويت، 1978م، ص: 44.

[87] العمران والبنيان في منظور الإسلام، د. مهندس يحي وزيري، ط: 01، روافد، الكويت، 2008م، ص: 39.

[88] سورة يوسف، الآية: 108.

[89] سورة القصص، الآية:77.

[90] الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، المحقق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، د.ت، بيروت، ص:585.

د – الكفاية المادية: تشمل تلبية الاحتياجات الأساسية من كسب، وملبس، ومسكن، وفرص حياة كريمة بطريقة مشروعة، مع التوكل على الله والثقة بقسمته في الرزق والأجل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنا ...﴾[91].

الخاتمة؛ وفيها أهم النتائج

1. مقاصد الاعتقاد هي تحقيق العبودية خالصة وصحيحة لله وحده لا شريك له
2. ضرورة الجمع بين الإخلاص والصواب ليكون العمل مقبولًا
3. المعتقدات تتسلل إلى نفوس الناس من المنطق السليم، والمقبول المحتمل، والمزيف المرفوض
4. المنهج الإسلامي المهيمن تتحقق به الموازنة بين الروح والجسد، والفرد والجماعة، ونمو الحياة وترقيها، وسعادة الدنيا والآخرة
5. الغاية من المقصد الدعوي:

- وجود الشمول والتوازن في مقاصد الدعوة
- يتيح للإنسان أداء مهامه في الأرض بوعي وإيمان
- يرتكز على مصادر المعرفة الأصلية، وهي الوحي الرباني
- ترتيب الأولويات: الضروريات قبل الحاجيات، والمصلحة العامة قبل الخاصة

6. مقصد الاستخلاف من بعثة الرسل وإنزال الكتب هو:

- تذكير الإنسان بالعهد العظيم لتحقيق مهمة الاستخلاف
- عمارة الأرض بالإيمان والعمل الصالح
- الحساب يوم القيامة
- استثمار الكون والمخلوقات التي سخرها الله له

وصلّى الله تعالى على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما

المصادر والمراجع

أولًا: الكتب

1. المصحف الشريف
2. صحاح الستة
3. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، حققه د. صلاح الدين المنجد، ط:01، دار الكتاب الجديد، بيروت/ لبنان، 1976م.
4. البرهان على إعجاز القرآن، عبد العزيز الشناوي، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ط:01، 1999م.
5. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
6. الخلافة الإسلامية حقيقتها وأصولها الاعتقادية وحتمية عودتها، ط: 01، (د. م. ن)، 1998م.
7. ديوان محمد إقبال (الأعمال الكاملة)، السيد عبد الماجد الغوري، ج:01، ط:03، دار ابن كثير، 2007م.
8. صيرورة الكون مدارج العلم ومعارج الإيمان، د. محمد باسل الطائي، عالم الكتب الحديث، إربد– الأردن، 2010.
9. العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط:14، دار القلم، دمشق / سوريا، 2009م.

[91] سورة النحل، الآية: 80.

10. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام، ضبط وتصحيح: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ط:02، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2010م.
11. لسان العرب، ابن منظور،ط:01، دار صادر-بيروت-1992م.
12. مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور، ط:02، دار النفائس/ 2001م.
13. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: 01، دار بن عفان، 1997م.
14. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني، ط:02، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1992م.
15. نحو تفعيل مقاصد الشريعة، جمال الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالأردن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط:01، 2001م.
16. وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم دلالاتها وأبعادها الحضارية، د. محمد زرمان، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد السادس عشر، 1998م.

ثانيًا: الدوريات، والمجلات:

1. مقال (مقاصد الشريعة) الزحيلي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة الكويت، السنة السادسة، عدد 06، 1402هـ -1403هـ.